

التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية دراسات لكبار المشرقين

ألف بينها وترجمها

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدايق بمصر

١٩٤٠

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

فهرس الكتاب

صفحة	
مقدمة عامة	هـ - ١

وارث ووارث

تراث الاوائل في الشرق والغرب	
لكارل هينرش بكر	٣ - ٣٣

انتقال التراث

من الاسكندرية إلى بغداد	
للدكتور ما كس ما يرهوف	٣٧ - ١٠٠
التراجم الارسططالية المنسوبة إلى ابن المقفع	
للاستاذ پول كروس	١٠١ - ١٢٠

الدين والتراث

موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الاوائل	
لاجنتس جولدتسيهر	١٢٣ - ٢١٧
بحوث في المعتزلة :	
لكرلو الفونسونلينو	١٧٣ - ٢١٧
١ - أصل تسميتها	١٧٣ - ١٩٨
ب - اسم القدرية	١٩٨ - ٢٠٤

صفحة

- ح — الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الاباضية
المقيمين في افريقية الشمالية ٢٠٤ — ٢١٠
و — حول فكرة غربية منسوبة إلى الجاحظ عن
القرآن ٢١٠ — ٢١٧
العناصر الافلاطونية المحدثة والغنوصية في الحديث
لاجنتس جولدتسيهر ٢١٨ — ٢٤١

معارضة التراث

- محاولة المسلمين ايجاد فلسفة شرقية
لكرلو الفونسونليو ٢٤٥ — ٢٩٦

ملحق تراجم

- كارل هينرش بكر ٢٩٩ — ٣٠٦
اجنتس جولدتسيهر ٣٠٧ — ٣١٩
كرلو الفونسونليو ٣٢٠ — ٣٣٠

العناصر الأفلاطونية

والغنوصية في الحديث^(١)

لاجنتس جولد تسهر

— ١ —

لسنا في حاجة إلى إجهاد أنفسنا في البحث كثيراً من أجل أن نسلم تواتراً بإمكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية في داخل هذه المادة الخصبة الغنية التي رويت على شكل أحاديث عن النبي . بل الأحرى أن يقال إنه كان مما يثير الدهشة والعجب حقاً ، مع ما في الإسلام من خاصية هضم العناصر الأجنبية وتمثلها ، أن تخلو وثائق الإسلام الدينية من تأثير الأفكار التي غزت المناطق التي امتد إليها الإسلام وانتشر فيها ، تلك الوثائق التي أخذ أصحابها الكثير من الثروة الروحية للوسط الذي هم فيه وجعلوه على صورة أحاديث للنبي .

وكان التصوف خصوصاً هو الذي عني بتصوير الكثير من الأفكار الأفلاطونية المحدثه والغنوصية في صورة إسلامية . فعن دوائر الصوفية صدر الكثير من الأحاديث الموضوعة ، التي قصد بها إلى تبرير قواعد هذا الاتجاه الديني ، وهو التصوف . وإن النقاد المحققين من أهل السنة ليذكرون أسماء بعض هؤلاء المتهمين بوضع أمثال تلك الأحاديث الصوفية^(٢) . ويأتي

(١) [ظهر هذا البحث في « مجلة الاشوريات » Z. A. المجلد الثاني والعشرون سنة ١٩٠٩ من ص ٣١٧ إلى ص ٣٤٤ بعنوان : « Neuplatonische und gnostische Elemente im Hadit »]

(٢) مثال ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي الصوفي النيسابوري (سنة ٣٣٠ — ٤١٢) ، الذي ألف أيضاً تفسيراً للقرآن عنوانه « حقائق التفسير » ، أول فيه القرآن « تأويلات الباطنية » . والذين ترجوا له يقولون عنه إنه « كان يضع للصوفية الأحاديث » (الذهبي : « تذكرة الحفاظ » ج ٣ ص ٢٤٩ ؛ السبكي ، « طبقات الشافعية » ج ٣ ص ٦٠ السطر الأخير) .

بعد هؤلاء الصوفية ، ممن لا يدخلون في عدادهم ، الفلاسفة الدينيون الذين من نوع إخوان الصفا ، وهم الذين يروون عن النبي كلاماً يعبر عن آرائهم هم أنفسهم في مسائل فلسفية دينية . كما أنه كان لمذهب الاسماعيلية في هذا الميدان جولات وصولات ، وهو المذهب الذي نقل أصحابه نظريات الأفلاطونية المحدثة إلى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية الرحب الفسيح . فمن هذه الدوائر كلها صدرت ثروة ضخمة من الأحاديث صُوِّر النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية .

وكثير من هؤلاء لم يكونوا واضعياً ، وإنما هم رأوها موجودة من قبل فاستغلوها من بعد في سبيل تحقيق غاياتهم ومراميمهم . وذلك أن العناصر الأجنبية كانت تأتي أيضاً إلى البيئات الإسلامية دون أن يكون بها ميل واضح إلى ناحية معينة قد قصد اليه قصداً ؛ فكان الذين يتجهون اتجاهها خاصاً يكمفونها من بعد ويجعلون لها في داخل مذاهم مكانة عظيمة ، لم يكن يطلب منها في الأصل أن تكون عليها بحال من الأحوال .

وأريد هنا أن أذكر ، من بين تلك الأحاديث التي تحمل هذا الطابع ، حديثاً مأخوذاً عن نظرية الصدور التي قال بها الأفلاطونيون المحدثون . فبما أن نظرية الوسط [القائلة بأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين] التي قال بها أرسطو في الأخلاق قد صيغت في عصر متقدم على صورة حديث عن النبي ^(١) ، فإن جزءاً لا شك فيه من نظرية الصدور الأفلاطونية المحدثة قد روى باعتباره حديثاً عن النبي .

فالبقول بأن العقل السكوني هو أول شيء صدر مباشرة عن الذات الإلهية يُصوّر على النحو الآتي : « أول ما خلق الله العقل . فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر ، فأدبر . ثم قال الله عز وجل : وعزني وجلالي ،

(١) راجع كتابي « دراسات إسلامية » Muh. Studien ، ج ٢ ص ٣٩٨ .

ما خلقت مخلقاً أكرم على منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أنيب ،
وبك أعاقب . »

وهذا التصوير الذى لا يتفق مع تصوير القرآن لخلق الكون عددياً
عن النبي . فنرى رجلاً كالغزالى (١) يورده باعتباره حديثاً عن النبي مع طائفة
أخرى من الأحاديث التى يمجدها العقل ، نذكر من بينها مما يهمننا فى هذا
المقام ، الحديث التالى أيضاً : روى أن عبد الله بن سلام سأل النبي « فى حديث
طويل فى آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت ياربنا هل خلقت
شيئاً أعظم من العرش ، قال نعم (٢) : العقل » . وليس من شك فى أن هذه
الأحاديث إنما وضعت تحت تأثير الفكرة القائلة بأن العقل الكونى هو أول
جوهر روحى صدر عن الذات الالهية ، وهى داخلة فى عداد تلك المجموعة
الضخمة من الأحاديث الموضوعة فى هذا المعنى ، والتى لا بد وأن يكون قد
ورد الكثير منها فى ذلك الكتاب الذى ذكره الغزالى ، ونعنى به كتاب
« العقل » لداود ابن مُحَبِّس البصرى (المتوفى سنة ٢٠٦) (٣) ، وهو عبارة
عن طائفة من الأحاديث الخاصة بتمجيد العقل وبيان فضائله . وهذا
الكتاب قد فقد ، وكان له تاريخ خاص شائق (٤) .

والحديث الذى أوردناه آنفاً ، والذى إن أمعنا النظر فيه وجدناه لا يكاد
يتفق مع المعتقدات الاسلامية السائدة ، سرعان ما انتشر وحُصر على
إذاعته فى البيئات الاسلامية المتحررة التى أضافت إلى الاسلام أفكاراً
افلوطينية أو طبعت اسلامها بطابع افلوطينى (مثل اخوان الصفا والاسماعيلية
والمتصوفة) . ولكنه لم يخترع فى هذه البيئات ، إنما هى تلقته فرحبت به

(١) « الاحياء » ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ٨٢ ، س ٢٠ (راجع أيضاً ديسو ،
« تاريخ النصرانية ودينهم » ص ٥٠ Dussaud, Hist. et relig. des Nosairis) .
(٢) الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٨٨ .
(٣) المرتضى ، « اتحاف السادات » (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٣) ج ١٠ ، ص ٣١ .
(٤) راجع الملحق رقم ١ ، الموجود بآخر هذا البحث .

أحرّ تر حيب ، وصادف هوى في نفسها فحرصت عليه وتعلقت به ، وأهابت به في كل مرة كان فيها ملائماً لنظرياتهم ، مؤيداً لمذاهبهم . أما البيئات السنية فكان طبيعياً أن تأخذ على تلك البيئات المتحررة باعتباره حديثاً موضوعاً قصد به إلى تأييد اتجاه معين^(١) . وإذا كان الغزالي قد استخدمه أيضاً ، فليس لهذا في نظرها كبير قيمة ، لأن حجة الاسلام الكبير لم يكن ينظر اليه ، حتى من جانب من أجלוه ومجذوه^(٢) ، باعتباره ناقداً جيداً في الحديث : فانه كان يتقبل الأحاديث غير الموثوق بها ، من جميع المصادر والجهات ، في شيء من التسامح كثير^(٣) .

وثمة حديث آخر ذو طابع غنوصي كان حظّه من الهجوم عليه والطعن

(١) يقول ابن تيمية ، « تفسير سورة الاخلاص » (القاهرة ، طبع النعساني ، سنة ١٣٢٣) ص ٥٨ ، بعد أن أورد مذهب الافلاونية المحدثّة في الجواهر الروحية الخالدة : « والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم كملاحدة المنصوفة مثل ابن عربي وابن سبعين وغيرهما ، يبحثون لمثل ذلك بالحديث الموضوع : أول ما خلق الله العقل . »

(٢) يقول السبكي في « طبقات الشافعية » ج ٤ ص ١٢٧ : « فالغزالي معروف بأنه لم تسكن له في الحديث يد باسطة . وعامة ما في « الاحياء » من الأخبار والآثار مبدد في كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء ، ولم يسند الرجل لحديث لواحد . كذلك نرى عبد الرحمن العراقي (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ) ، في كتابه « تخريج أحاديث إحياء العلوم » ، يلاحظ ملاحظات تهديدية كثيرة على الغزالي .

(٣) عن خصوم الغزالي من رجال الدين (الحنابلة) بالاشارة إلى هذا كثيراً . فأبو الفرج الجوزي ألف كتاباً خاصاً في هذا ، وحفيده (سبط ابن الجوزي) وافقه على هذا الحكم : « قال أبو الفرج بن الجوزي قد جمعت أغلاط الكتاب (احياء علوم الدين) وسميته « لإعلام الأحياء بأغلاط الاحياء » اشترت إلى بعض ذلك في كتاب « تلبس إبليس » ، وقال سبطه أبو المظفر : وضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنسكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح » (ذكره الآلوسي في كتابه « جلا العيين » ص ٧٤) . راجع فيما يتعلق بضعف الغزالي في نقد الأحاديث (مناظرة ابن حجر والعيني في هذا) (القسطلاني ج ٩ ص ٣٦٠) (في باب : « رقائق » برقم ٥١) . وفي كتاب « تفسير سورة الاخلاص » ص ٧٢ في أسفل ينقد ابن تيمية الغزالي في هذا الصدد نقداً عنيفاً فيقول : « فانه لم يكن يعرف ما قاله احمد ، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث . »

فيه أقل من حظ الحديث السابق . فيروى عن النبي أنه قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شيء يكون » . وهذا الحديث ذكره الطبري في صيغ عديدة ^(١) ، بينما هو كان يجمل الأحاديث المتعلقة بالعقل جهلاً تاماً . وهناك في كتب أخرى ، فيها وصف لكيفية خلق الوجود وصفاً يتفق مع السنة بمعناها الضيق ، كما في كتاب « العرائس » ^(٢) « للشعبي مثلاً ، نجد ذكراً للأحاديث المذكور فيها القلم » ^(٣) ، بينما الأحاديث المذكور فيها العقل قد أغفلت إغفالاً تاماً . وذلك لأن تلك الفكرة الخاصة بالقلم أسهل في التوفيق بينها وبين ما أتى به الاسلام ، نظراً إلى النحو الذي ذكر عليه القلم في القرآن . ومن أجل هذا كانت تجد تسامحاً أكثر عند أهل الحديث ^(٤) . أما الحديث الخاص بالعقل فلم يكن من المستطاع أن يحظى بمثل هذا التسامح . غير أن هذا الحديث قد وجد على كل حال ، وكان يردد ويتكرر ذكره بطريقة آلية دون اعتبار لمعناه واحتياط لتنتأجه ، ولم يكن من الصعب أيضاً أن يجعل له إسناد . أما ذوو الفطنة فكان عليهم أن يفلوا من حدته على أقل تقدير . وهذا تم مبكراً جداً بأن أحدثوا في نص الحديث بعض التغيير ، فجعلوا صيغته على النحو التالي : « لما خلق الله العقل » ، بدلاً من : « أول ما خلق الله العقل » ، واعتبار العقل من خلق الله شيء مفهوماً مسلم به . وفي هذه الصيغة الالهون خطراً استطاع هذا الحديث أن يجد قبولا جدياً في دوائر سنية واسعة باعتباره « حديثاً مرفوعاً » . فان ابن احمد بن حنبل جعل له مكاناً بين الإضافات التي أضافها إلى كتاب « الزهد » الذي ألفه أبوه (واسم هذه الإضافات :

(١) « تاريخ » الطبري ص ٢٩ — ص ٣٨ .

(٢) طبعة القاهرة (الحلبي ١٣١٢) ص ١٠ ، ص ٢٢ .

(٣) راجع فيما يخص بهذه الأحاديث ما قلناه في « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٧ ص ٣٩٦ ، تعليق رقم ٦ .

(٤) راجع الروايات المختلفة في « كنز العمال » ، برقم ٣٣٠٦ ، ٣٣١٤ وما يليه ، مأخوذة عن مسند ابن أبي شيبة والدارقطني .

« زوائد الزهد ») ، والطبراني جعل له إسناداً ينتهى عند أنى هريرة ، الذى كان قادراً على أن يتحمل كل إسناد ! وهناك آخرون — مثل ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية — يمنعون من روايته حتى فى هذه الصيغة المتلازمة مع السنة قائلين : « لا يصح فى العقل حديث » (١) ، بينما نجد من جديد أناساً أقل تشدداً يحتاطون فى الحكم عليه ، فيقولون إنه ليس من المستحسن أن يحكم على حديث بأنه موضوع ، إذا كان هذا الحديث مختلفاً فيه (٢) .

وفى هذه الصيغة الجديدة عانى النص تغييرات وتزويقات كثيرة من جديد أيضاً : فالله لا يقول للعقل أقبل فيقبل وأدبر فيدبر فحسب . بل يقول له أيضاً أقعد فيقعد ، وانطق فينطق ، وأصمت فيصمت ؛ ويضاف إلى فضائل العقل السابقة الذكر فضائل أخرى كثيرة ، فيقول له الله : « بك أعرف ، وبك أحمد ، وبك أطاع » (٣) . ولعل هذه الصفات التى تضاف إلى العقل أن تكون توسعاً فى نص حديث « أول ما خلق الله العقل » .

وثمة تغيير حاسم فى حديث العقل ظهر فى روايته فى صيغة أوردها مجير الدين فى مقدمة كتاب تاريخ القدس ، يذكر فيها العقل لا باعتباره أول ما خلق الله وإنما باعتباره آخر شيء خلق ، أما أول شيء خلق فهو اللوح المحفوظ والقلم . فبعد أن خلق الله الوجود بما فيه من عجائب ، أوجد فى النهاية العقل . ولكن ظل الخطاب الذى وجهه الله الى العقل ، فى هذه الصيغة الجديدة ، كما هو فى الحديث الذى ذكرناه آنفاً (٤) . فنحن هنا إذاً بازاء محاولة جديدة من أجل صياغة حديث العقل فى صيغة مقبولة ممكنة .

(١) راجعه فى « الدرر المنتثرة » (بهامش كتاب « فتاوى حيدية » ، طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧) للسيوطى ص ١٩٧ .

(٢) ذكر ذلك الفاوقجى فى كتاب « اللؤلؤ المرصوع فيما لأصل له أو باصله موضوع » (طبعة القاهرة ، المطبعة البارونية ، بدون ذكر تاريخ) ص ٦٤ فقال : « وحيث أختلف فيه لا يحسن الحكم عليه بالوضع » .

(٣) « كنز العمال » برقم ١٩٢٨ .

(٤) « الأنس الجليل » ص ١٢ .

وليس أدل على توطن هذا الحديث الممنوع، حتى بصورته الأولى، في العلوم الدينية الإسلامية على الرغم من احتجاجات أهل السنة وعلى الرغم من تحايلات رجال الحديث، نقول ليس أدل على هذا من أن واحداً من أكثر أهل السنة تشدداً وتعصباً، رأى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى أن يؤول الحديث تأويلاً نحويّاً من شأنه أن يسلب الحديث اتجاهه الأفلوطيني. فليس الحديث: أول ما خلق الله العقل (أي أول شيء خلقه الله هو العقل) وإنما هو أول ما خلق الله العقل (أي لما خلق الله العقل) قال... الخ. ويقابل هذا في العبرية $\text{בְּרֵאשִׁית בָּרָא אֱלֹהִים אֶת-הָעֹלָם}$ (أي: في البدء خلق) (أي: لما خلق) فكأن خلق العقل إذا قد سبقه خلق المخلوقات الأخرى، بعكس ما يقوله الأفلاطونيون المحدثون^(١). ونرى من هذا كيف أن ابن تيمية الذي ابتكر هذا التقدير البارع استطاع أن يبلغ به نفس الغرض الذي حاول أسلافه أن يبلغوه بتغييرهم في الحديث تغييراً كبيراً، وذلك بأن يضعوا «لما» بدلاً من «أول ما»، وبأن يغيروا في الترتيب.

— ٢ —

وهناك عنصر أجنبي أدخل في تكوين نظرية أهل السنة في النبي. ولكن على الرغم من أنه أجنبي فقد ظهر أنه ملائم وقابل لأن يهضمه أهل السنة^(٢). وذلك العنصر هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجوداً من قبل أن يوجد على الأرض. وهذا التصوير لا يبدو كمنظرية قالت بها المدارس الغنوصية والصوفية، وإنما يبدو في صورة أحاديث موثوق بصحتها، منتشرة في البيئات السنية على اعتبار أنها قول قال به النبي نفسه.

(١) «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» ص ٥٤: «وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل».

(٢) راجع ماقلناه في «مجلة الجمعية الشرقية الألمانية» المجلد رقم ٦٢ ص ١٣ و ٢٦ وما يليها

فالحديث التالى منتشر انتشارا عاما ، ونعنى به : « كنت نبيا وآدم بين الطين والماء » ، أى قبل أن يخلق الله آدم من هذه المواد ، أو أنه كان نبيا قبل أن يوجد آدم وقبل أن يوجد الطين والماء (اللذين منهما خلق آدم) . ومع أن المتشددى من نقدة الأحاديث رفضوا صوغ هذه النظرية على هذا النحو ^(١) إلا أنهم اضطروا مع ذلك إلى التسليم بصحة هذه النظرية تبعاً لمعاييرهم الخارجية الظاهرية التى يعتمدون عليها فى معرفة صحة الأحاديث . فهم يعترفون بها أولا فى صيغة الرواية التى أوردها الترمذى (ج ٢ ص ٢٧٢) فى « سننه » معلقاً على الحديث بقوله : « حديث حسن صحيح غريب » . فى هذه الصيغة يروى أبو هريرة أن النبى حين سئل متى جاءته النبوة ، قال : « وآدم بين الروح والجسد » . ثم إنهم يعترفون أيضاً بالرواية ^(٢) التى ذكرها ابن سعد فى « طبقاته » (القسم الأول ، ج ١ ص ٩٦ س ٢) باسناد إلى عرباض بن سارية الصحابى ، وهى الرواية القائلة بأن النبى قال : « إني عبد الله وخاتم النبيين » ^(٣) وإن آدم لم ينجدل فى طينته ، ، أى بينما كان آدم لا يزال فى الطين الذى خلق منه . وفى فصل خاص (الكتاب المذكور ص ٩٥ س ١٥ وما يليه) جمع ابن سعد الروايات المختلفة لهذه النظرية اعتماداً على روايات رواته الشقة .

(١) ابن تيمية فى رسالته « فى الكلام على القصاص » ، وفيها يطن على الأحاديث التى يروىها القصاص ويقول إنها أحاديث باطلة (« الرسائل » ج ٢ ص ٣٤٠) . وقد أورد الفواقى (ص ٣١) هذه الأحاديث نقلاً عن السخاوى .

(٢) لكن هذا الحديث الروى عن أرباض عن النبى يروى أيضاً فى صيغة أخرى يظهر أن المراد منها التخفيف من فكرة وجود محمد وجوداً سابقاً . فالهروى (المتوفى سنة ٤٠١) يرويه فى كتابه « الغريب » (أورده كتاب « النهاية » ، تحت لفظ : جدل ج ١ ص ١٤٩ ، وعنه أخذ « لسان العرب » المجلد ١٣ ص ١٠٩ فى أسفل) : « أنا خاتم النبيين فى أم الكتاب ، وإن آدم الخ... » . وهذه الصيغة لا تدل إلا على أن الله قد قضت مشيئته ، قبل أن يخلق آدم ، أن يكون محمد نبيا . ولكن ليس من شك فى أن ابن سعد يورد النص الأصلى للحديث .

(٣) أورده ابن تيمية فى الموضع المذكور ، وابن قيم الجوزية فى « هداية الحيارى » (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٦٣ بالنص التالى : « إني عند الله لمسكون خاتم النبيين الخ »

وليس أدل على أن المراد من كل هذه الأحاديث هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجوداً سابقاً ، من الرواية المنسوبة إلى قتادة (المتوفى سنة ١١٧) البصرى (الكتاب المذكور ص ٩٦ س ١٦) : روى عن النبي أنه قال : « كنت أبيل الناس في الخلق وآخرهم في البعث » ، أى أبى خلقت قبل خلق جميع الناس .

ثم جاءت نظرية الشيعة في النبوة فاستخلصت نتائج هذا التصوير البعيدة وذلك لأنه لما كان الشيعة قد ارتفعوا ، في نظرياتهم ، بطبيعة الأئمة إلى مقام فوق مقام الطبيعة الانسانية وجعلوا لهؤلاء مكانة في العالم العلوى ، كان من الضروري أيضاً أن يكون محمد نفسه باعتباره جديداً أعلى للأئمة ، أن يكون له نصيب في الأسطورة التي نسجت الشيعة حول أهل البيت . فحين خلق الله آدم وضع في ظهره محمد وعلي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين على صورة جواهر منيرة^(١) أرسلت نورها في جميع أنحاء العالمين العلوى والسفلى . ولهذا الجواهر الموضوعه في جسم آدم كان السجود الذي أمر الله الملائكة به ، فسجدوا إلا ابليس ، أبى واستكبر وحينئذ أمر الله آدم أن يرتفع يبصره إلى ذروة العرش ، فرأى آدم كيف انطبعت صور أنوار أشباح محمد وبقية أفراد أهل البيت في العرش ، كما ينطبع وجه الانسان في المرأة الصافية^(٢) . (راجع الملاحق رقم ٢) .

وهذه العملية يتحدث عنها التفسير الذي أهداه الشيعة إلى الامام حسن العسكري فيطيل الحديث ، مضيفاً إلى ذلك ملاحظة على أسماء أهل البيت ،

(١) ويقالون في هذا الوجود وجوداً سابقاً بقولهم إن الله خلق أرواح أفراد أهل البيت قبل أبدانهم بألفى عام : « وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفى عام » ، (السكيتي ، « الأصول من الجامع السكافي » ، طبعة بومباي ص ٢٧٦ في أسفل) .

(٢) « تفسير العسكري » ص ٨٨ : « أنظر يا آدم إلى ذروة العرش ! فنظر آدم ، ورفع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش ، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره ، كما ينطبع وجه الانسان في المرأة الصافية . فرأى أشباحنا فقال : يا رب ما هذه الأشباح ؟ قال الله : يا آدم ، هذه أشباح أفضل خلأني وبرأياي ، هذا محمد الخ » .

فيقول إن الله علم آدم أن تلك الاسماء الخمسة ذات نسب باسم الله كلاً بحسب أهميته ومرتبته (« شققت لهم اسماً من اسمي ») . ولهذا فإن دعاء الله يؤثر أعظم التأثير إذا ما استشفعوا إليه .

وفىما يتصل بفكرة انطباع صور المصطفين من عباد الله في عرشه ، اعتقد أن هذه الفكرة أتت من تصورات يهودية ، وأنها شاهد جديد على أن مصادر غلو الشيعة في الأئمة يجب أن لا يبحث عنها في الميدان الفارسي فحسب . فان الهجاده (١) تقول في إحدى الروايات التي تروى إن صورة الانسان الموجود بالجزء الأعلى من العرش السماوى (حز قيل ١ : ٢٦) هى صورة يعقوب التى رفعت إلى عرش الله . والملائكة الذين يصعدون وينزلون على سلم السماء (التكوين ٢٨ : ١٢) يعرفون في وجه الرحالة النائم الصورة السماوية الأولى (٢) . فتمثيل صورة جد بنى اسرائيل منطبعة منذ القدم في عرش الله . يبدو أنه كان نموذجاً لتمثيل صورة أجداد الأئمة في هذا المكان السامى نفسه . إلا أن الأسطورة الشيعية لا توضح لنا ، هل هى تعتبر صور أهل البيت

(١) [تنقسم الكتب التى تشتمل على تعاليم الديانة اليهودية إلى قسمين : قسم ذى طابع تفسيري اسمه « هالاكاه » ؛ والآخر يشتمل على الكتب الأخرى واسمه « هجاده » (من الفعل هجد ، أى شرح ، علم) . وهذه الكتب الأخيرة تشتمل على قصص تكمّل أو توضح قصص الكتاب المقدس ؛ وعلى تعاليم دينية وأخلاقية خاصة بالله وصلته بالعالم والانسان ، وواجبات الانسان نحو الله ونحو الجار ؛ وبالمعتقدات الدينية ؛ وعلى أقوال سياسية مثل التعاليم الخاصة بعلاقات الشعب الاسرائيلي مع الشعوب الأخرى ، وتغزيات له عن أحواله السيئة الحاضرة التى هو فيها ، وحث على الأمل في مستقبل أحسن ؛ وأخيراً على أمثال وقصص شعبية]

(٢) تلمود بابلي ، كتاب نحولين ص ٩١ ب : « هم يصعدون وينظرون إلى الصورة التى فى العلا » ؛ سفر تكوين ربانم الترجوم فصل ٦٨ (مع الإشارة إلى سفر أشعيا ٤٩ : ٣) : « أنت الذى صورتك منطبعة فى العلا » . الترجوم الاورشليمي على سفر التكوين آية ١٢ اصحاح ٢٨ : « يعقوب الصديق الذى صورته مثبتة فى كرسي الجلالة » . كذلك يرد فى الاناميد المستعملة فى العبادة (مثل القدوشا فى صلاة موساف التى تقام فى اليوم الثانى من عيد رأس السنة) : « صورة الطاهر منطبعة فى العرش » ؛ وكذلك فى صلاة أوفان التى تقام فى يوم سبت نحمو : « البطل الطاهر منطبع فى العرش » (راجع بير Beer ، « عبادة اسرائيل » ص ٧٧٦ س ٨) .

منطبعة إلى الابد منذ القدم في عرش الله — كما هي الحال في صورة يعقوب عند اليهود — أو تعتبر أن ظهورها كان انعكاساً مؤقتاً فحسب ، كان الغرض منه أن يتأملها آدم . ومهما يكن من شيء فإن هذه الأسطورة التي نحن بصددتها تقدم لنا صورة من صور التعبير عن الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً . ويتصل بهذا أوثق اتصال تلك النظرية القائلة أن جوهر النبي النوراني يتوارث جيلاً بعد جيل — بمعنى آخر طبعاً غير المعنى الذي قصد إليه الشعراء الذين عاصروا النبي ، حين مدحوه بقولهم إنه نور أضاء على البرية كلها ، (١) وإنه نورٌ يستضاء به (٢) .

وما نريد أن نتحدث عنه هنا هو تلك العقيدة التي نشأت مع تقديس نبوة محمد ، القائلة بأن في النبي جوهرأ نورانياً قائماً به قياماً حقيقياً واقعياً ، وضع أول ما وضع في جبهة آدم ، وانتقل من آدم على توالي العصور وباستمرار إلى حامل الشريعة الالهية والرسالة الربانية حتى وصل ، بعد أن مر بأجداد النبي ، إلى النبي وتجلي فيه هو نهائياً (٣) . وتوسع الشيعة في هذه العقيدة أيضاً توسعاً كبيراً ، فيه غلو وفيه إفراط شديد . ولكن عناصرها الأولى كان معترفاً بها عند أهل السنة أيضاً ، بل أفضت في البيئات السنية نفسها إلى أسطورة ضخمة :

فبعد أن أمر الله الملائكة بأن يأتوا بقبضة تراب من زوايا الأرض الأربع ، أمر جبريل أن يأتيه بالقبضة البيضاء ليخلق منها محمداً . حينئذ هبط جبريل ... في ملائكة الفردوس المقربين الكرويين وملائكة

(١) حسان بن ثابت ، أورده ابن هشام ص ١٠٢٥ س ٢ .

(٢) كعب بن زهير ، « بانت سعاد » البيت رقم ٥١ .

(٣) في الكتب التي تعرض قصص الانبياء يذكر أن النور الحمدي ينتقل من جبين آدم إلى شيث أولاً ، ثم أنوش ثم قينان الخ ، وعن طريق اسماعيل إلى أجداد النبي ، راجع ما يقوله ابن أبياس في « بدائع الزهور ووقائع الدهور » (القاهرة ، المطبعة السكستلية سنة ١٢٩٦) ص ٤٤ وما يليها .

الصفحة الأعلى فقبض قبضة « من الموضع الذي سيكون يوماً ما قبراً للنبي » (أى القبضة) يومئذ بيضاء نقية ، فعمجت بماء التسليم ، ورعرت حتى صارت الدرة البيضاء ، ثم غمست في أنهار الجنة كلها . فلما أخرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى الى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبياً . فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا ... ثم طيف بها في السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً ... قبل أن تعرف آدم . ثم عجنها بطينة آدم . وهذا هو نور محمد ، وضع في جين آدم ، فأضاء كالقمر ليلة البدر . فكأن الملائكة إذا قد عرفوا محمداً قبل أن يعرفوا آدم^(١) .

وكل ما هنالك من خلاف جوهرى بين تصوير الشيعة لهذه الفكرة وتصور أهل السنة ، هو فى أن الشيعة يؤكدون أن علياً كان له نصيب فى انتقال الجوهر النورانى انتقالاً مستمراً جيلاً بعد جيل من الجد الواحد من أجداده إلى الجد الآخر . فقبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة كان محمد وعليّ نوراً واحداً بين يدي الله^(٢) . فلما خلق آدم سرى هذا النور ، وهو على هذا النحو من الوحدة غير المنقسمة ، فى الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاكيات ، حتى وصل الى عبد المطلب وحينئذ انقسم الجوهر النورانى الربانى فذهب قسم الى عبدالله ، والد النبي ، وقسم الى أبى طالب ، والد علي .

(١) الثعلبى ، كتاب قصص الأنبياء المسمى « بالعرائس » (طبعة القاهرة ، الحلبي سنة ١٣١٢) ص ١٦ فى منتصفها ؛ ص ١٧ فى السطر السابق على الأخير .

(٢) يورد ابن المطهر الحلي فى « كشف اليقين فى فضائل أمير المؤمنين » (ألف من أجل السلطان أوجيتو خودابنده وطبع فى بمباى سنة ١٢٩٨ ملحقاً بكتابه الكبير « الفين الفارق بين الصدق والمين ») وهو ألف برهان على امامة على مضافاً إليها ألف أخرى للرد على خصومه) ، ص ٤ حديث سلمان عن النبي : « كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة ، فلما خلق الله آدم سلك ذلك النور فى صلبه الخ » .

وفي هذا المعنى ينسب الشيعة^(١) الى محمد أنه قال عن عليّ أنه : « المتردد
معى من الأرحام الزاكيات ، والمتقلب معى فى الأصلاب الطاهرات ،
والراكض معى فى مسالك الفضل ، والذي كسب ما كسبته من العلم
والحلم والعقل ، وشقيقى الذى انفصل منى عند الخروج الى صلب عبد الله
وصلب أبى طالب » .

وعلى كل حال فان أهل السنة لم يستخلصوا من فكرة « النور المحمدى »
كل نتائجها كما فعل الشيعة . ولكنهم كلما تطوروا وبمقدار سماحهم بإيجاد
نوع من عبادة محمد وتقديسه ، نراهم لم يكونوا متشددين فى عدم الاقتراب
من نظرية الشيعة فى النبوة . يدل على ذلك المثال التالى :

كان أهل السنة فى البدء ينكرون الرأى القائل بأن أجداد محمد كانوا
مؤمنين ، وهو الرأى الذى يقول به الشيعة . ويعتمدون فى ذلك على أحاديث
تدل على أن أجداده الذين كانوا قبل أن يبعث نبياً ماتوا كافرين ، ولكن
النبي توسل فى بعثهم بعد أن ماتوا على الكفر ، من أجل شىء واحد هو أن
يؤمنوا بالدين القويم ، وبهذا المعنى وحده يُعد النبي ابناً لآباء المؤمنين . وأتوا
بآية من القرآن (٢٨ : ٥٦) أيضاً للدلالة على أن عبد الله لن يدخل الجنة^(٢)
وحرصوا على أن يقولوا ، بخلاف ما يقوله الشيعة ، بأن والد عليّ بن أبى
طالب مات كافراً^(٣) ، وكانت عناية الدوائر السنية بترديد هذا القول عناية
بلغ من شدتها أن هذا القول دُسَّ على كتاب «الفقه الأكبر» المنسوب الى أبى

(١) « تفسير العسكرى » من ٧٣ .

(٢) « السكامل » ص ٧٨٨ ، س ٧ وما يليه .

(٣) فلذلك ، « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٢ من ٢٧ : راجع « عيون
الأخبار » من ٣١١ س ١٠ .

بحقيقة (١)، إن لم يكن قد وجد فيه من الأصل ثم حذف منه من بعد . ولا يتصل بهذا مسألة طهارة آباء النبي من كل سفاح، فحتى لو كان أجداده القريبون كفاراً، إلا أنه كان زواجهم جميعاً حتى أقدمهم، زواجا صحيحاً من وجهة نظر الاسلام (٢). فما كان عاراً بالنسبة الى العربي العادى، ونعني به أن يكون في آبائه سفاح، لا يمكن أن يكون موجوداً في آباء النبي. كما لا يمكن أن يكون في سلسلة نسبه نكاح من نوع نكاح المقت، [وهو أن يتزوج الانسان امرأة أبيه من بعده]. بل لما نرى رجلاً ذا نزعة عقلية كالجاحظ يعتبر كافراً: كل من اعتقد غير هذا ولم ينكر إنكاراً باتاً إمكان وجود سفاح في آباء النبي وأصلابه (٣).

وكما ازداد تقديس النبي في الدوائر السنية الاسلامية (٤)، كلما عمل مذهب السنة على التوسع في استخلاص نتائج فكرة انتقال نور النبي من آدم الى محمد. فقالوا ان هذا الاعتقاد ينبغي إمكان أن يكون أحد أجداد النبي كافراً

(١) كذلك في النص الذي شرحه على القارى (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٩٦ وما يليها؛ والفقرة الآتية: « ورسول الله صلعم مات على الايمان، وأبو طالب عمه صلعم وأبو علي رضي الله عنه مات كافراً » لا توجد في متن «الفتح الأكبر» الموجود في آخر هذا الشرح. بل إن فكرة أن أبوى محمد كانا كفاراً قد دسست على بعض نسخ «الفتح الأكبر»، راجع بحث محمد بن شنب في «المجلة الافريقية» لسنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ *Revue Africaine*. (٢) ويحاولون الأجاذب الآتية أساساً لهذه النظرية: « لم أزل أثقل من أصلاب الظاهرين الى أرحام الطاهرات » (أورده فخر الدين الرازى في «مفاتيح الغيب» ج ٦ ص ٥٤٨، عند تفسيره للآية ٢١٩ من السورة رقم ٢٦)، أو: « ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الاسلام حتى خرجت من بين أبي وأمي »، وكذلك: « كلنا نكاح، ليس فينا سفاح ». وقد حاول رجال الدين التوفيق بين الصعوبات التي قامت ضد هذا الحديث الأخير (وجود سفاح في أجداد الرسول) وبين نظريتهم هاتيك، عن طريق تصحيحات في نسبه صادرة عن الهوى والغرض. (٣) في «كتاب الاصنام»: وهذا الموضع أورده الدميرى تحت لفظ « قرش » ج ٢ ص ٢٩٢ في أسفل: « ومن اعتقد غير هذا فقد كفر، وشك في هذا الخبر، والحمد لله الذي نزهه عن كل وصم، وظهره تطهيراً ».

(٤) راجع فيما يتعلق بازدياد تقديس محمد ازديادا مستمراً، بحثنا الذي ظهر في «مجلة فينا لمعرفة الشرق»، المجلد رقم ١٥ ص ٣٣.

وخصوصاً أبواه . ثم إن المشركين نجس كما هو وارد في القرآن (٢٨:٩) فكيف يمكن أن يكون أجداد النبي الأطهار مشركين ؟ الأولى أن يقال إنه منذ آدم لم يكن ثمة مشرك في سلسلة نسب الرسول . ومن بين المدافعين عن هذه العقيدة فخر الدين الرازي . حتى أن جلال الدين السيوطي شعر بأنه مدين له بالشكر والثناء لدفاعه عنها وتأيينه لها في « تفسيره »^(١) فقال فيه :

من آدم لأبيه عبد الله ما فيهم أخو شرك ولا يستنكف
فالمشركون كما بسورة توبة نجس ، وكلهم بطهر يوصف
وبسورة الشعراء فيه تعلق في الساجدين^(٢) فكلهم مُتَحَنِّف
هذا كلام الشيخ فخر الدين في « أسرار » هبطت عليه الزرْفُ
فجزاه رب العرش خير جزائه وحباه جنات النعيم تزخرف^(٣)

ومن أجل هذا فإن من المفهوم طبعاً عند السيوطي أن والدي النبي علي الأقل لا يمكن أن يكونوا كفاراً : فعبد الله كان النور المحمدي واضحاً على جبينه ، وأمنة أخذت هذا النور عن زوجها — وهذه فكرة تقول بها الأخبار القديمة عن حمل النبي ومولده^(٤) . ويتردد ذكرها دائماً بصورة شعبية في قصائد المولد^(٥) . والسيوطي أشد الكتاب الإسلاميين حماسة لهذه الفكرة حتى أنه كرس للدفاع عنها وتأيينها ما لا يقل عن ثمان رسائل خاصة^(٦) جمعت في مجموعة ، وطبعت في إحدى مطابع حيدر آباد سنة ١٣١٦ هـ^(٧) .

(١) لعل الإشارة إلى ج ٦ ص ٥٤٨ .

(٢) سورة رقم ٢٦ ، آية رقم ٢١٩ .

(٣) من « قصيدة في إيمان أبوي النبي » ، مطبوعة في كتاب محي الدين العطار ، « بلوغ الأدب في مآثر العرب » (طبعة عبيه في لبنان سنة ١٣١٩) ص ٧٠ — ص ٨٠ .

(٤) ابن سعد ، القسم الأول ، ج ١ ص ٥٩ = ابن هشام ص ١٠١ س ٧ وما يليه

(٥) كما ترى مثلاً في كتاب أحد بن مسمار ، « تجلّة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب » (طبعة الجزائر سنة ١٩٠٢) ص ٣٧ .

(٦) راجعها في بروكلمن ج ٢ ص ١٤٧ بارقام ٤٣ إلى ٤٨ .

(٧) ابن شنب ، « المجلة الافريقية » سنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ .

وطالما كانت فكرة انتقال الجوهر النوراني الموجود وجوداً سابقاً موجودة في نطاق مذهب السنة، فإن هذه العملية، عملية الانتقال، قد انتهت بظهور محمد (١)، بينما مذهب الشيعة يجعل انتقال النور المحمدي يستمر في سلسلة الأئمة. هذا إلى أن نظرية النور المحمدي هذه قد قيل بها خارج دائرة المذهب الشيعي في عصر متأخر من أجل استخدامها في المناورات السياسية الدينية، فتراها تظهر بطريقة تستحق النظر والعناية سنة ١٥٢٠ بمدينتي كشمير ويرقند حيث نرى حركة خوجه، كما أوضح ذلك مارتن هرتسمن، تعتمد في قيامها على ادعاء أن النور المحمدي انتقل بطريق مستمر لانقطاع فيه إلى مخدوم. وكان النزاع الذي حدث بين أبنائه مصدره مسألة إلى من منهم انتقل الجوهر النوراني الذي حل في أييهم مدة ما (٢).

ونحن لم نعن بالتحدث عن هذه المظاهر الأسطورية في نظرية النبوة عند المسلمين وتطوراتها وتفرعاتها، إلا لكي نكشف عن أقدم الوثائق التي كانت أساساً لها.

وأنا أرى في بعض آيات الكميت نوعاً من مثل هذه الوثائق. فانه يقول في إحدى قصائده الهاشمية (رقم ٣ ٦ الآيات ٣٩ ٦ ٤٠) مدحاً في الرسول:

مَا يَتَيْنِ حَوَاءَ إِنْ نُسِبَتْ إِلَى آمِنَةِ اعْتَمَ (٣) نَبْتُكَ الْهَدْبُ

(١) يروي الكنتاني في « صلوات الأناس » (طبعة فاس سنة ١٣١٤) ج ٢ ص ١٩٠ عن سيدي محمد ابن الهاشمي (المتوفى سنة ٨٢٣) أحد رجال الدين، أنه لقب بلقب « النور المحمدي » لأنه « كان إذا رأى أحداً يقول أهلاً بالنور المحمدي حتى لقب بذلك ». وهذا لا يمكن أن يكون له معنى إلا إذا كانت التحية موجهة إلى أحد من نسل النبي.

(٢) مارتن هرتسمن، « الشرق الاسلامي » ج ١ ص ٣٣٥ *Der islamische Orient* وكتابه عن « التركستان الصينية » ص ١٧ *Chinesisch-Turkestan*.

(٣) يترجمها هوروفنس بما معناه: إن شجرة نسبك الدائمة الخضرة تشمل ما بين حواء إلى آمنة؛ ولستكن راجع مع ذلك معاني لفظ « اعتم » والشواهد عليها في « لسان العرب » تحت هذه الكلمة، المجلد رقم ١٥ ص ٣٢٠ من ١٣ وما يليه.

قمرنا فقرنا تناسخوك لك ال فضضة منها بيضاء والذهب (١)
ولن نستطيع أن نفهم هذا إلا على أن جوهر النبي السامي قد وجد منذ
حواء، وأنه (وهنا نراه يشبه بالفضة اللامعة والذهب) (٢) انتقل جيلا بعد
جيل بدون انقطاع. أى أن جوهر النبي إذا كان موجوداً وجوداً سابقاً منذ
آدم، وانتقل على صورة جوهر سام من حامله في هذا الجيل إلى حامله في
الجيل الذى يليه، حتى ظهر في محمد جلياً سافراً. ونحب أن نلفت النظر هنا
إلى استعمال الكمية لكلمة «تناسخ» للدلالة على هذا الانتقال، وهذه الكلمة
هى الاصطلاح الصحيح الخاص بفكرة انتقال الأرواح من شخص إلى
شخص (٣)، والذى استعمله الكتاب المتأخرون باستمرار للدلالة على انتقال

(١) «هاشميات الكمية»، طبع هوروفنس. وهذه النظرية ينسب إلى على أنه
يقول بها في إحدى الخطب المنسوبة إليه، «نهج البلاغة» طبع محمد عبده (بيروت سنة
١٣٠٧) ص ٩٥ س ١٠.

(٢) ليس من غير الممكن أن يكون هناك صلة بين هذا وبين ما اعتاده الأفلاطونيون المحدثون
وأصحاب الفنوس من تشبيه الجواهر الصادرة عن الله بالمعادن الراقية والأحجار الكريمة
(«الذهب الابريز»، «أولوجيا أرسطوطاليس» طبع ديترتشى ص ٦٠٢ وما يليه)،
وراجع فيما يتعلق بانتقال «الجواهر» لدى الفنوصيين المسيحيين، أوزر، في كتابه «رسائل دينية»
Usener, *Theologische Abhandlungen*, C. v. Weizsäcker... gewidmet 201 ff., *Kebra-
nagast*, ed. Bezold, Uebers, 66 f.

(٣) إلى جانب هذا الاصطلاح الشائع الاستعمال للدلالة على انتقال الأرواح من جسم إلى
جسم (كذلك يرد في صيغة أخرى هى «المناسخة»، كما في «رسائل» الجاحظ، طبعة
القاهرة سنة ١٣٢٤ ص ١٢٨ س ١: «فادعى الربوبية من طريق المناسخة»، وابن خلكان،
طبع فستفيلد ج ٤ ص ١٣٦ السطر الأخير) يوجد الاصطلاح الآخر تقنين = تقميص، ويستعمل
خصوصاً للباس قميص بدل قميص آخر (راجع القاموس المحيط، تحت هذا اللفظ): «مذهب
أصحاب التقميص»، «المشرق» المجلد رقم ٩ ص ١٠٢٠ س ١٧، س ١٨. وفي ترجمة
عربية جزائرية لكتاب الصلوات العبرية المسمى «سدور» («نظام الصلاة بكل لغة»، تأليف
اليهاو خاى جرش، طبعة ليثورنو سنة ١٦٤٣ من سنة الخلق) ورقة رقم ٢٤٥ | ترد
العبارة: «سواء في تقميص هذا أوله في تقميص آخر»، كترجمة لعبارة عبرية فيها إشارة إلى
أكوار التناسخ (جلجلول) الذى يترجمها المترجم بكلمة «تقميص» في هذه العبارة.

الجزء الالهى فى النفس من إمام إلى إمام آخر^(١).
ومن هنا نستخلص كيف أن فكرة انتقال جوهر النبي السامى الموجود
وجوداً سابقاً قد وجدت مبكراً فى بيئة الذين تشيعوا لعل . إذ يجب علينا
افتراض أن الشاعر قد عبر هاهنا شعراً عن نظرية كانت عامة شائعة فى البيئة^(٢)
التي عاش فيها .

— ٤ —

ووجد الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً أعظم صورة وصل إليها فى
النظرية القائلة بأنه هو كل التجليات التي تجلت فيها الروح القدسية . فلا
خلاف بين الأنبياء إلا فى المظهر الخارجى ؛ أما فى الحقيقة فإنه رسول واحد ،
بعث إلى العالمين فى أزمنة مختلفة وفى مظاهر جسمانية متباينة ، كي يعلن للناس
إرادة الله وينبئهم بمشيئته . وما آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد
بمختلف الواحد منهما عن الآخر ، ولكنهم جميعاً روح قدسية واحدة متجلية
فى صور ومظاهر جسمانية مختلفة ، فجوهرهم جميعاً واحد ، وليس الاختلاف
إلا شيئاً ظاهرياً فحسب .

وهذه النظرية ترجع فى أصلها إلى الغنوصية المسيحية ، أى إلى الفكرة التي
عبرت عنها المواعظ Homilien المنسوبة إلى القديس كليمانس فقالت (المواعدة
رقم ١٨ ، فقرة ١٣) : « ليس ثمة غير نبي صادق واحد ، هو إنسان خلقه
الله وزوده بروح القدس ، يمر خلال عصور العالم (τὸν αἰῶνα τρέχει) منذ
البدء ، بأسماء وصور متغيرة ، حتى يشمل الله برحمته فيبلغ الراحة الأبدية بعد

(١) « تناسخ الجزء الالهى فى الأئمة » (القهرستانى ص ١٣٣ س ٣) ؛ « نور
يتناسخ من شخص إلى شخص » (الكتاب السابق ص ١١٣ س ٣ ؛ ص ١١٤ س ٦) .
(٢) كذلك كان يلد للعباسيين أن يقال لهم إن فضائلهم كانت قد نشأت من قبل فى صلب
آدم . فالأغاني (ج ٩ ص ٦٠ س ٦ من أسفل) يورد البيت الآتى من قصيدة فى مدح المؤمنين :
إن الذى قسم الفضائل حازها فى صلب آدم للإمام السابع

انقضاء الأعصر التي حددت له كي يؤدي الرسالة التي أخذ على عاتقه أداءها (١) وبهذه النظرية قالت بعض المذاهب في الاسلام وبعض الحركات السياسية التي أفضت إلى إيجاد مذاهب . ولعل المقنع الدجال وصاحب الفتنة المشهور (٢) أن يكون من أول القائلين بهذه النظرية ، وذلك في أول الخلافة العباسية . ولعله كان في مقدورنا أن نعرف الشيء الكثير عن آرائه الدينية لو أن الأخبار الخاصة بحركة المبيضة (في الفارسية : سپيد جامكان) التي أوردتها البيروني (٣) ، ومحمد بن حسن بن سهل (٤) ، والمسعودي (٥) ، قد حفظت لنا . والنقطة التي تدور حولها دعوة المقنع ، تبعاً لما بقي لنا من أخبار عن الجانب الديني من هذه الحركة ، خصوصاً ما حفظه لنا النرشيخي (٦) (كتب حوالى سنة ٣٣٣هـ) وابن خلكان (٧) ، هي ادعائه أنه أحد التجسيدات التي تتجسدها

(١) فردينند كرستين باور ، « تاريخ الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى » ، الطبعة الثالثة ، تيبينجن سنة ١٨٦٣) من ٢٢٤ F. Chr. Baur, Kirchengeschichte der drei ersten Jahrhunderte .

(٢) يشير بهاء الله في البيان الذي كتبه « إلى علماء الآستانة وحكام العالم » إلى معجزة القمر التي أتى بها المقنع (« رسائل الشيخ البابي بهاء الله » ، ج ١ طبع روزن ، بطرسبرج سنة ١٩٠٨ من ٦٥ س ٢٠ وما يليه) .

(٣) راجع تاريخه طبع سخاو ، ص ٢١١ .

(٤) راجع المسعودي ، « مروج الذهب » ج ٨ ص ١٤٠ .

(٥) الكتاب السابق ص ٣٣ .

(٦) « وصف جغرافي وتاريخي لمدينة بخارى » Description topographique et historique de Boukhara ؛ طبع النص الفارسي شارل شيفر Charles Schefer (باريس سنة ١٨٩٢) ص ٦٤ ، س ٣ من أسفل : « من آثم كه خود را بصورت آدم بخلاق نمودم وباز بصورت نوح وباز بصورت ابراهيم وباز بصورت موسى وباز بصورت محمد وباز بصورت أبو مسلم وباز باين صورت كي مي بينيد » [وترجمتها : أنا ذلك الشخص الذي ظهرت ، حين الخلق ، في صورة آدم . ثم في صورة نوح ، ثم في صورة ابراهيم ، ثم في صورة موسى ، ثم في صورة محمد ، ثم في صورة أبي مسلم ، ثم في هذه الصورة التي أنا عليها] .

(٧) ابن خلكان برقم ٤٣١ ، راجع لـ ج. براون « تاريخ الفرس الأدبي » ج ١

ص ٣٢٠ E. G. Browne, A Literary History of Persia

الروح القدس على أدوار متكررة ، وأنه أحد الصور التي تجلت فيها الروح القدس في آدم وجميع الأنبياء — وفي بعض الروايات ، والعلماء والحكماء أيضاً (١) — حتى أبي مسلم وأخيراً فيه هو نفسه . فكأنه إذاً ليس يختلف عن آدم ونوح وإبراهيم الخ ، بل هو قد فاق الصور السابقة عليه بأن الطبيعة الالهية لم تتجل فيهم كاملة كما تجلت في آخر تجلياتها في صورة المقنع ، فهم قد تجلت فيهم الطبيعة النفسانية بينما هو قد تجلت فيه روحانية خالصة (٢) . وهو يبعث برسائل في هذا المعنى رواها النرشخي ، فليس بعجيب إذاً إذا كان الذي يروى لنا هذه الرسائل ، وهو سُني (ونعني به ملخص أقواله الفارسي ، أي النرشخي) يقطع هذه التجديفات بقوله : « خاكش بدهان » أو « خ بردهان » [أي عليه اللعنة وترجمتها حرفياً : مُلِئَ فمه رغماً] (٣) .

وهذه النظرية عينها تظهر في مذهب الاسماعيلية بطريقة منطقية منظمة . إلا أن الكلام فيه ليس عن تجسد الروح القدس أو الله تجسداً دورياً ، وإنما عن تجلي العقل الكوني في أدوار على صورة الناطق متأثراً في ذلك بنظرية الصدور الأفلاطونية المحدثة ، وهذه نظرية وجدت أحدث تعبير عنها لدى باب ، فانه يقول عن نفسه « كنت في يوم نوح نوحاً ، وفي يوم إبراهيم إبراهيم ، وفي يوم موسى موسى ، وفي يوم عيسى عيسى ، وفي يوم محمد محمداً ، وفي يوم علي قبل نبيل علي ، ولا كونن في يوم من يظهره الله من يظهره الله ، وفي يوم من يظهره من بعد من يظهره الله من يظهره من بعد من يظهره

(١) ابن خلكان ، الموضع المذكور ، ج ٤ ، ص ١٣٦ س ٣ (قسنتفلد) : « ثم إلى صورة واحد واحد من العلماء والحكماء » .

(٢) النرشخي ، الموضع المذكور ص ٦٥ س ٢ : « ايشان نفساني بودند ومن روحاني ام » [وترجمتها : إن هؤلاء نفسانيون ، أما أنا فروحاني] .

(٣) الكتاب السابق ، ص ٦٤ ، س ٤ من أسفل ؛ ص ٦٥ ، س ٩ ؛ ص ٧١ ، س ٢ ؛ ص ٧٢ ، س ٢ ، وقارن فيما يختص بهذه الصيغة بجثي في « مجلة الجمعية المفرقية الألمانية » ، المجلد ٤٢ ص ٥٨٩ .

الله ... إلى آخر الذي لا آخر له مثل أول الذي لا أول له . كنت في كل ظهور حجة الله على العالمين^(١) .

وطبيعي ألا يكون من الممكن أن تجد نظرية تجليات الروح النبوية بعد محمد تجليات متكررة مكاناً لها في داخل مذهب أهل السنة المسلمين ، ماداموا يؤمنون بالعقيدة القائلة بأن محمداً « خاتم الأنبياء » وهى العقيدة التى حاول المبتدعة فى زمن مبكر جداً أن يزعموها^(٢) . ولكن الصيغة المتواضعة لهذه النظرية والتى نجدها فى المواعظ المنسوبة إلى كليمانس ، والتى تقول بأن تجليات النبى تقف عند حد ونهاية أو سكون على حد تعبيرها (ἀνάπαυσις) يمكن أن نقينها مشتتة فى كتب أهل السنة ، لأن هذه الصيغة يبدو أنها تلائم العقيدة القائلة بأن محمداً خاتم الأنبياء . فنحن نجد النظرية القائلة بأن محمداً هو نفس الأنبياء السابقين فى حديث أورده ابن سعد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، باعتباره كلاماً قاله النبى تفسيراً لقوله [تع] « وتقبلبك فى الساجدين » : « قال (أى النبى) معناه من نبى إلى نبى ومن نبى إلى نبى حتى أخرجك نبياً » ، أى إذا كان فهمى له صحيحاً — أن الذى بُعث للناس نبى واحد ، عصره بعد عصر حتى ظهر أخيراً فى صورة محمد . ويدل على أن هذا هو معنى تلك النظرية التى تُروى فى سداجة ، أن هذه النظرية مشار إليها فى القرآن فى قوله

(١) ١. ج. براون ، « ثبت ووصف ٢٧ مخطوطة بابية » ، « مجلة الجمعية الآسيوية المسكية » سنة ١٨٩٢ ، ص ٤٧٣ . وراجع أيضاً فيما يتعلق بكيفية فهم البهائية لكون الأنبياء نبياً واحداً ، بحث براون بعنوان « عام بين الفرس » (لندن سنة ١٨٩٣) ص ٣٩٩ *A Year amongst the Persians* .

(٢) وكان أبو منصور العجلي ، الذى صلبه والى السكوفة يوسف بن ممر سنة ١٢٠ هـ = ٧٣٨ م ، يقول بأن « الرسل لا تنقطع أبداً ، والرسالة لا تنقطع » . وكان سلفاً للإسماعيلية فى الالتجاء إلى التأويل الرمزى ، والقول بسقوط التكليف بالنسبة إلى من يؤمنون بالامام الحقيقى ، وكذلك فى أقوال ونظريات أخرى . وهو قد قال أيضاً بأن « أول ما خلق الله هو عيسى بن مريم وعلى بن أبى طالب » . راجع المهرستانى ص ١٣٦ ؛ والايحى — والجرجاني (طبعة استامبول سنة ١٢٣٩) ص ٦٢٥ .

« وتقبلك في الساجدين »^(١) (٢٦: ٢١٩) أى أنه نبى واحد يظهر جوهره في صور مختلفة كي تبشر المؤمنين في مختلف العصور^(٢).
ومن هذا نستطيع أن نحكم إلى أى حد كانت الأحاديث حتى القديمة منها نفسها قابلة للتأثر بسهولة بالأفكار الغنوصية .

ملحق

١ - خاص بصفحة ٢٢٠ تعليق رقم ٤ : يذكر الذهبي في كتابه في نقد رجال الحديث عن كتاب « العقل »^(٣) (بعد أن ذكر آراء أحمد بن حنبل وغيره في مؤلف هذا الكتاب وتجريحهم له تجريحاً شديداً ، قال) : « عن الدارقطني قال : كتاب « العقل » وضعه ميسرة بن عبد ربه^(٤) ثم سرقه منه داود بن المحبر فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة^(٥) ؛ وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء ؛ ثم سرقه سليمان بن عيسى السنجري » وهكذا نجد عصابة من سراق التأليف ! إلا أن كلمة « سرق » في الاصطلاح الكتابي في الشرق ليس لها المعنى السوء الذى يرتبط في أذهاننا بمقابل هذه الكلمة في الألمانية . فالتناس لا يتورعون

(١) لا يعرف الطبرى في « تفسيره » (ج ١٩ ص ٦٩) شيئاً عن هذا التفسير ؛ والفخر الرازى يقول بهذا التفسير إلى جانب قوله بالتفسير الحرفى فيقول (ج ٦ ص ٥٤٨) : « ان الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد » .

(٢) ابن سعد ، القسم الأول ج ١ ص ٥ س ٩ وما يليه .

(٣) « ميزان الاعتدال » ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) واضح الأحاديث عن فضائل القرآن ، راجع كتابي « دراسات اسلامية » ج ٢ ص ١٥٦ س ١١ ؛ ولشدة نهمه وشراسته لقب بلقب الأكال .

(٥) وهذه طريقة ليس من النادر استخدامها من أجل خداع الناس بأن المرء فضل تحصيل أحاديث النبي بمجهوده الخاص : فيدعى المرء لنفسه ما حصله الآخرون من أحاديث بنصها أو مع بعض التغيير جاءها سنداً . فيذكرون عن ابراهيم المصيصي أنه « كان يسرق الحديث ويسويه » أى ويكيّفه تكييفاً خاصاً ؛ ويذكرون عن علي بن محمد الزهرى أنه « كان كذاباً ، سرقه (أى الحديث) من ابن أبي علاج وجعل له إسناداً آخر » . راجع صيغة الله المدراسى في حاشية على كتاب ابن حجر العسقلاني ، « القول المسدد » ص ٧٩ ص ٨ ؛ ص ٩٢ ، س ٤ .

من أن يصفوا كبار الشعراء بهذا الوصف^(١). وواضح من الفصل المتعلق بالسرقات في كتاب «حماسة الخالدين» (بروكلين ج ١ ص ١٤٧) أن هذا اللفظ توسع في استعماله كثيراً حتى أصبح يشمل التلميذ أيضاً^(٢). ونرى شارح «النقائض» يقول عن جرير، الذي استعمل في إحدى قصائده (رقم ٦٥، البيت رقم ٣٤) لفظ «ازدهر»، إن هذه «كلمة نبطية سرقها» (أي جرير) من كلام النبط^(٣). وهو يدلنا على أن هذه الكلمة (سرقة) لم تكن تستعمل دائماً بمعنى سبّ ومشين. ويذكرون أن سليمان السنجري — وقد حكم عليه بأنه كذاب مصرح — ألف كتاباً في «تفضيل العقل». ومن بين الأحاديث التي وضعها يستحق الحديث التالي أن نوردته: «إذا أتت على أمتي ثلاثمائة وثمانون سنة^(٤) حلت لهم العزبة والترهب على رؤس الجبال»، وهو حديث استخدمه الصوفية تأييداً لمثلهم الأعلى في الحياة وسلوكهم (الرهبانية)، وهو المثل الأعلى الذي وردت أحاديث أخرى بدمه^(٥).

(١) راجع بحثي في «مجلة الجمعية المشرقية الألمانية»، المجلد رقم ٤٦ ص ٤٦ وما يليها.
(٢) ظهر في مجلة «المقتبس» المجلد رقم ٣، ص ٧٥١ وما يليها. وفي هذا الفصل يستعمل خصوصاً اللفظ أخذ، ولكن في ص ٧٥٢، س ١٠ من أسفل يرد: «طرائف السرقات».

(٣) «النقائض»، طبع بيقان ص ٦٩٠ س ١١.

(٤) «ميزان الاعتدال» ج ١ ص ٣٧٧.

(٥) وتوجد أقوال كثيرة ذاعت على صورة أجاديث، فيها تذكر حوادث محددة بتاريخ معين، مثل الحديث: «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة خرجت شياطين حبسهم سليمان بن داود في جزائر البحر فذهب منهم تسعة أعشارهم إلى العراق يجادلونهم بالقرآن وعشر بالشام» وهو حديث دفع إلى وضعه ما كان يسود ذلك العصر من مناظرات ومنازعات دينية؛ وكذلك مثل: «لو ربى أحدكم بعد السنين ومائة جرو كلب خير من أن يربى ولدا»، وفي هذا إشارة إلى انحطاط الحالة العامة وسوءها؛ أو مثل: «إذا كانت سنة خمسين ومائة فخير أولادكم البنات»، ولست أستطيع أن أسنتج إلى أي شيء تشير هذه النبوءة؛ وأحدث سنة يرد ذكرها هي السنة الواردة في الحديث التالي: «لا يولد بعد الستمائة مولود ولله فيه حاجة». راجع هذه الأحاديث في كتاب «الآلؤ الوقعي» للآلؤ الرصوع ص ٢٠ و ٦٥ و ١٠٢.
(٦) يورد «قوت القلوب» حديثاً تذكر فيه سنة مائتين باعتبارها السنة التي فيها =

٢ — تعليق على ص ٢٢٦ . وقد زخرفت الشيعة هذه الأساطير بكثير من الأشياء المتغالى فيها ، تغالياً دعا المعتدلين من أئمة الشيعة إلى ذمها . فترى محمد بن محمد بن النعمان ، المشهور في كتب الشيعة باسم الشيخ المفيد (توفي سنة ٤١٣ هـ ؛ راجع لوث ، فهرست كتب المكتب الهندى Loth, Catalogue India Office) يجيب على سؤال ألقى إليه خاصاً بقيمة أمثال هذه الأساطير بما يلي : « إن الأخبار بذكر الأشباح تختلف ألفاظها وتباين معانيها ، وقد نبت الغلاة عليها بأباطيل كثيرة ، وصنفوا فيها كتباً لغوا فيها وهزوا فيما أثبتوا منه في معانيها ، وأضافوا (بأجوبة) الكتب إلى جماعة من شيوخ أهل الحق ، وتحروصوا الباطل باضافتها إليهم ، من جملة كتاب [في نص المؤلف : الكتاب] سموه كتاب « الأشباح والأظلة » ، نسبوه في تأليفه إلى محمد بن سنان . ولسنا نعلم صحة ما ذكره في هذا الباب عنه . وإن كان صحيحاً ، فإن ابن سنان قد طعن عليه وهو متهم بالغلو ، فإن صدقوا في إضافة هذا الكتاب إليه فهو ضلال ضال . وإن كذبوا فقد تحملوا أوزار ذلك . وبعد ذلك يقدم لنا الرواية الصحيحة في نظره للأساطير المتعلقة بالأشباح النورانية . (أورده دلدار على في كتاب « مرآة العقول في علم الأصول » ، طبعة لكتنوف سنة ١٣١٩ هـ ، ج ٢ ص ١٤٤) — عباس محمد بن الحسن بن سنان في النصف الأول من القرن الثالث ؛ قال عنه الطوسي في كتابه « فهرست كتب الشيعة » تحت رقم ٦٣٨ : « وقد طعن عليه وضعف » .

== يحدث هذا التحول ؛ راجع « مجلة تاريخ الأديان » المجلد رقم ٣٨ ص ٣١٤ . وقارن بهذا الحديث الذي أورده الغزالي في « الأحياء » ج ٢ ص ٢١ : « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد » ، وفي كتاب « تحف السادة » ج ٥ ص ٢٩١ روايات أخرى لهذا الحديث ، وملاحظات نقدية عليه .